ASJP Algerian Scientific Journal Platform
دراسات معاصرة Contemporary Studies
مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة المركز الجامعي-تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-988 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297

المجلد: 05/ العدد: 01 (2021)، ص.ص.266/282

حجاجية النص الشعري الجزائري الحديث؛مقاربة بلاغية في قصيدة«فلا عزّ حتّى تستقلّ الجزائر»لمفدي زكريا

The argumentative modern Algerian poetic text, a rhetorical approach in the poem " There is no glory until Algeria is independent" by Moufdi Zakaria

د. عبد السّلام حميدي
hamidiessalam@gmail.com
جامعة ابن خلدون تيارت
(الجزائر)

تاريخ الاستلام 2020/12/13 تاريخ القبول: 2021/01/20 تاريخ النشر: 2021/06/02

ملخص:

عادت البلاغة بحلة جديدة في النصف الثاني من القرن العشرين، وبدأت تسيطر على الدراسات النقدية الحديثة عبر وسائل تعبيرية مختلفة؛المكتوبة منها والمرئية وكذا المسموعة، فكانت العلم العابر للكل الخطابات، بعدما أعيد النظر في تصوراتها القديمة لدى السوفسطائيين و أرسطو تماشيا مع ضرورات العصر ومتطلباته.وفق رؤية بلاغية حجاجية تهدف إلى بناء المعرفة وفهم عمليات التأثير والإقناع.ويعد الحجاج أهم الآليات التي يقوم عليها الدرس البلاغي الجديد في مساءلته للخطاب، فقد أضحى مطلبا أساسيا في كلِّ عملية اتصالية تستدعي الإفهام والإقناع.

لذا تأتي هذه الورقة البحثية لتقف على بلاغة الحجاج في الخطاب الشعري الجزائري الحديث ؛ مقاربة لقصيدة«فلا عزّ حتّى تستقلّ الجزائر»من ديوان«اللهب المقدس»لمفدي

زكريا بالاستناد على أهم المعطيات والآليات الإقناعية التي طرحها الدرس البلاغي الحجاجي الجديد.

الكلمات المفتاحية:

بلاغة الحجاج؛آليات الحجاج؛الشعر الجزائري الحديث؛ديوان اللهب المقدس ؛مفدي زكريا.

Abstract:

Rhetoric returned with a new look in the twentieth century, and started to dominate contemporary critical studies by different expressive methods, literary, visual and audio, and transcendent research of all discourses of all sorts, after reconsidering their old conceptions of Aristotle in line with the realities of the era and its requirements. Pilgrimage aims at developing awareness

The issue of putting the pilgrims in modern Algerian poetic discourse; An approach to the poem " There is no glory until Algeria is independent " by Moufdi Zakaria based on the most important persuasive mechanisms presented by the new argumant rhetorical

. **Keywords:**the rhetoric of the argumentation; the mechanics of the argumentation; The modern poetic of Algeria; the Divan of the Holy Flame; Moufdi Zakari

1.مقدمة:

تعدت البلاغة حديثا الجملة إلى النص، ولم تقتصر على النص الأدبي فقط، بل أضحت العلم العابر لكل أنواع النصوص؛ النص القانوني والسياسي والصحافي والإعلامي وغيرها، إنها تمثل منهجا مرجعه التأثير والإقناع لفهم النصوص، أي أن كل نص يتضمن بالأساس وظيفة تأثيرية، وبدأت البلاغة تسيطر على الدراسات النقدية الحديثة عبر وسائل تعبيرية مختلفة المكتوبة منها، والمرئية وكذا المسموعة، وقد أعيد النظر في تصوراتها القديمة لدى أرسطو وفق رؤية بلاغية حجاجية تهدف إلى بناء معرفة وفهم عمليات التأثير والإقناع.

ويعد الحجاج أهم الآليات التي يقوم عليها الدرس البلاغي الجديد في مساءلته للخطاب، فقد أضحى مطلبا أساسيا في كلِّ عملية اتصالية تستدعي الإفهام والإقناع. وحتى الصور البيانية والمحسنات البديعية في نظر بيرلمان أصبحت ذات وظيفة حجاجية ليس إلا.

وقد عرف الحجاج عدة توجهات في الدراسات البلاغية الغربية الحديثة، تعددت بتعدد الحقول المعرفية، وبالرغم من هذا التنوع إلا أن منطلقه واحد، هو الإقناع والتأثير، فالحجاج فلسفي لدى تولمين، جدلي عند إيمران، تداولي لدى ديكرو وإنسكومبر، وبلاغي عند بيرلمان، هذا التوجه الأخير-البلاغي-يلتقي فيه التخييلي الشعري مع الحجاجي الخطابي في النص الأدبي؛الشعري والنثري على حد سواء، فهل التقى حقيقة التخييلي والحجاجي في أداء وظيفة التأثير والإقناع في قصيدة«فلا عزّ حتّى تستقلّ الجزائر»للشاعر الجزائري مفدي زكريا؟ .هذا ما ستجيب عنه هذه الدراسة التحليلية.

2.البلاغة ؛الجديدة القديمة:

لم تنشأ الدراسات البلاغية الحجاجية الحديثة والنظريات الحجاجية منفصلة عن البلاغة القديمة (الخطابة) Rétorique ، وإنما انطلقت من تحوير وفهم القضايا النظرية التي طرحها التراث الخطابي اليوناني وإسهامات السوفسطائيين وأرسطو،وحتى السياق الذي ظهرت فيه البلاغة الجديدة في النقد الغربي في أوربا لا يختلف عن السياق الذي ظهرت فيه الخطابة Rétoriqueفي القرن الخامس قبل الميلاد في أثينا، استلهم بيرلمان (CH.Perlman) وتيتكا (U.Tytka) تصورهما للبلاغة الجديد الناتج عن تحولات المجتمع الأوربي التي شهدها على مستوى الثقافة والسياسة و الاقتصاد، وتصاعد الوعي الديمقراطي في مقابل نبذ الجماهير لكل أساليب العنف والقمع والاضطهاد في المجتمعات الأوربية، لقد تظافرت عدة عوامل في إفراز البلاغة الحجاجية؛ بداية بظهور اللسانيات التداولية والنقد الإيديولوجي.وكذا تجدد أنماط الحياة وتغيّر النظرة العلمية بحلول النسبية مكان الحتمية و الدقة محل الانطباع، إضافة إلى العولمة بأبعادها الثقافية والاقتصادية، وقد اعتبر حمادي صمود هذه التحولات أوجها للخطابة الجديدة«ورجوع وظيفة الإقناع والتأثير في صيغة لم تعرفها من قبل، وأصبح

الخطاب يعتمد في إنجاز تلك الوظيفة وفي إحدى التأثير أساليب متنوعة، منها ما يقوم على بلاغة الصورة، ومنها ما يقوم على قدرة الخطاب الفائقة في التأثير لا بمنطوقه وإنما بمفهومه ومتضمنه. من هنا أصبحت هذه البلاغة قادرة ليس فقط على التأثير وتحويل العقول والصورة فعلا وممارسته على أساس الفعل و رد الفعل، وإنما أصبحت كذلك متحكمة في أذواق الناس تساعد على صياغتها وإعطائها الوجهة التي تهيؤها لقبول ما يقترح عليها»(1)، ولم يكن مسعى بيرلمان (CH.Perlman) وتيتكا (U.Tytka) في ربط البلاغة بالحجاج في الدراسات الحديثة«بمنأى عن هذه التحولات التي تروم التأسيس لثقافة جديدة مبنية على التنوع والاختلاف، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه كان متحمسا أكثر من غيره، حتى لا تتكرر التجربة السوفسطائية وما تقوم عليه من مناورة وتأثير سلبي وتضليل ودغدغة للمشاعر وإثارة للانفعالات وسلب للحريات»(2)،حيث كان يسعى إلى تخليص البلاغة(الخطابة) من التأثيرات السلبية للمتلقي، فينتقل من عنصر سلبي إلى إيجابي أي من متلقي مؤثَّر فيه إلى متلقي مؤثِّر، له حق المشاركة في صنع الخطاب.

3.بين البلاغة الجديدة والحجاج:

ورد مصطلح البلاغة الجديدة(الخطابة)والحجاج بمفهوم واحد في كتاب«مصنف في الحجاج-البلاغة الجديدة-1958م»، حاول فيه بيرلمان أن يخلص الحجاج من مفهومه التقليدي القائم على السفسطة والمغالطة وإيهام العقول والتلاعب بالعواطف، إلى حجاج أساسه حصول القبول بين الأطراف المتحاورة، بهذا فإنه يولي أهمية للجمهور وهو الطرف الثاني في الخطاب، إذ لم يعد الجمهور ذلك المتلقي السلبي الذي«يقتصر دوره على التلقي، وإنما أصبح متلقيا إيجابيا يتلقى ما يتلقاه ويفكر فيه ثم يناقش ويدعم، لينتقل بذلك من موقع التلقي إلى موقع الإرسال »(3)، لم يعد أقل درجة من المخاطب يتلقى الخطاب دون أن يكون له حق الرد، وإنما أصبح طرفا مهما في عملية التخاطب يسهم في بناء الخطاب ،من هنا كان لا بد على بيرلمان أن يبحث«عن شكل من الخطابة(البلاغة) لم يتردد في وصفها بالجديدة وهو وصف يسعى إلى تخليص الخطابة(البلاغة) مما علق بها من لعانة لم تفارقها على

مر الدهر»(4)، بداية من تطبيق مقولة الفرد القائد التي شاعت في المجتمع اليوناني،«فالبلاغة الحجاجية عند بيرلمان ليست قصرا على الصورة المجازية، ولا برهنة ديكارتية صارمة،بقدر ما هي عقلانية خارج الأنظمة الصورية للعلم، و احتمالية دون تظليل، إن بيرلمان يعيد اللغة في شقها الجدلي إلى قطب تصوره ويجعلها محط مشروع تأملي مفصل يعتبر الحجاج خطابا ذا استدلال منظم باحث عن منطق للقيم متوجه إلى مستمع كوني»(5)

أصبحت النظرية الحجاجية مع أوزوالد ديكرو O. Ducrot وجون كلود أنسكومبر J .C.Anscombreترى أن الوظيفة الأساسية للغة هي الوظيفة الحجاجية الإقناعية، في حين أن التواصل والإخبار والتعبير هي وظائف ثانوية، بمعنى أن اللغة تحمل بنية حجاجية استدلالية، حيث تتجلى في مجموعة من الروابط المنطقية واللغوية وكذا العوامل الظاهرة والمضمرة،«والحجاج باعتباره آليات لغوية محضة وهو ما يشكل موضوع نظرية الحجاج في اللغة، فالحجاج هنا ظاهرة لغوية تجدها في كل قول وفي كل خطاب، سواء أكان الخطاب فلسفيا أو أدبيا أو دينيا أو اقتصاديا أو سياسيا؟...نجده في الأسماء والأفعال والصفات والظروف والحروف ونجده في التراكيب النحوية والصور البلاغية، نجده باختصار في كل ظواهر اللغة إن بشكل أو بآخر»(6)، وهذا ما يتخلص في مقولة أوزوالد ديكرو O Ducrot:«إنّنا نتكلم بقصد التأثير»، وقد قسم النقاد مراحل الحجاج منذ أرسطو إلى عصرنا هذا إلى ثلاث مراحل؛مرحلة التأسيس مع أرسطو في كتابه«فن الخطابة»، ومرحلة إحياء الحجاج مع شاييم بيرلمان (CH.Perlman) وأولبريخت تيتكا(U.Tytka) ، ومرحلة التطوير مع أوزوالد ديكرو (O.Ducrot) وأنسكومبر (Anscombre) وماير (Mayer)، وأصبحت أحد الأصوات في الدراسات البلاغية الحديثة لا تفرق بين الحجاج والبلاغة في الوظيفة، وهذا ما نجد له صدى في البلاغة العربية القديمة؛ في البلاغة العامة– باصطلاح مُحَمَّد العمري–التي أسسها حازم القرطاجني،والتي تختلف عن بلاغة الجاحظ الإقناعية وبلاغة ابن المعتز التخييلية، حيث تقوم على الإقناع الحجاجي والإمتاع التخييلي على حد سواء.

4.التحليل الحجاجي للقصيدة:

يهتم الحجاج بالوسائل اللغوية وغير اللغوية التي يتنجها المخَاطب قصد توجيه خطابه تتحقق منه المقصدية، والهدف الذي يريد الوصول إليه عبر آليات حجاجية معروفة في الخطاب الشعري ذي الطابع العاطفي منه خاصة، وكلما تقوّى الخطاب بالجانب العاطفي أكثر كلما كان إلى الحجاج أقوى،«وهذا الجانب العاطفي أساسي في الحجاج غير أنه يكون حاسما في أجناس من الخطاب خصوصا الشعر...، لهذا جاز كله اعتبار الشعر ضربا من الحجاج المغلب للمقومات العاطفية على حسب المقومات الفعلية»(7)؛والشعر الثوري حجاجي مادام شعرا هادفا يحمل صاحبه مواقف سياسية رافضة للاحتلال وقد استثمر مفدي زكريا الحدث السياسي لغرض حجاجي، لما يتضمنه من مواقف مثيرة تعمق الإحساس والشعور في المتلقي عبر لغة عاطفية مجازية في معظم القصيدة، والتي تحمل عوامل حجاجية وروابط كثيرة منها الصناعية وغير الصناعية، إلا أننا سنقتصر علي تقديم بعض منها لتحليل هذا الخطاب الشعري تحليلا حجاجيا نسعى من خلال ذلك إلى إبراز دوره في الكشف عن معاني النص ومدى تأثيره في المتلقي،وهي آلية المجاز ،المقارنة والتناص.

1.4. تقديم القصيدة:

«فلا عز حتى تستقل الجزائر»؛عنوان قصيدة لشاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا،نظمها في تشرين الثاني من عام 1961،عدد أبياتها 93 بيتا شعريا ،في ديوان اللهب المقدس،تمثل موقفا سياسيا بوصفه الدافع إلى نظمها يتوجه الشاعر من خلالها بخطاب للأمة الجزائرية يتضمن دعوته الصريحة للانتفاضة والثورة ضد الاحتلال،سنحاول من خلال هذه الدراسة تحليل بعض الأبيات منها نظرا لطولها من جهة وخضوعا لشروط المجلة في تحديد عدد صفحات المقال من جهة أخرى.

2.4.آلية المجاز:

يعد المجاز مفخرة العرب في لغتهم، فهو دليل الفصاحة وذروة البلاغة، يصنف ضمن الأساليب البلاغية البيانية التي لها القدرة على تحريك مشاعر المتلقي و التأثير في عواطفه

ووجدانه، إذ إنها تخاطب القلب وتستميله وتخاطب العقل وتجعله دائم التفكر والتدبر، في رحلة بحث عن الصور و المعاني المقصودة، والمجاز ضد الحقيقة تمثله عناصر منها الاستعارة والكناية والمجاز بنوعيه المرسل والعقلي.

أ. حجاجية الاستعارة:

تعد الاستعارة من أقوى العناصر المجازية وأقدرها على تقريب الخطاب إلى ذهن المتلقي ،لما تحمله من خصائص تمكنها من الإفهام وقدرة على الإقناع، وقد حظيت بأهمية في الدرس البلاغي منذ أرسطو الذي خصها لدى فئة العبقرية من الناس، بل اعتبرها علامة العبقرية، لقد حصرها أرسطو في الشعر والخطابة معا في بعدها التقريري التحقيقي والإيحائي التخييلي، إلا أن وجودها في الشعر بشكل كثيف لتضفي صبغة جمالية، وتتجلى في الخطابة بدرجة أقل لتؤدي دورا حجاجيا إقناعيا، لا يقتصر مفهوم الاستعارة لدى أرسطو في حدود المشابهة بين الشيئين ،وإنما يتعدى ذلك إلى كل أشكال النقل، فتكون«الاستعارة بهذا المعنى ليست انزياحا عن الاستعمال العادي للغة وإنما هي اكتشاف للواقع وصياغته من جديد وإدراك للعلاقات غير المدركة بين الأشياء المتباينة»(8)،وحتى تكون الاستعارة أكثر تأثيرا في المتلقي، حدّد أرسطو مجموعة من الخصائص يجب أن تتوافر فيها ،وقد ذكر منها الوضوح والحرارة في الأسلوب والملاءمة في الصفات وجنس الكتابة والمناسبة السليمة، ومن ثم «فالاستعارة التي تندرج ضمن البيانELOCUTIO لا تكتسب قيمتها إلا في الوقت الذي تستجيب فيه لشرطي الملاءمة والفعالية وبخاصة حينما تستعمل لدعم الحجة الموجهة للجمهور الذي يقتنع بمشاعر الفعالية اللغوية»(9)، فما مدى إسهام عنصر الاستعارة في الخطاب الشعري، وهل مكنت مفدي زكريا في هذه القصيدة من التأثير في المتلقي؟

تصنف الاستعارة ضمن عناصر الوصل المؤسس للواقع حسب تقسيم بيرلمان للعوامل الحجاجية، وقد وردت في هذا النص الشعري الذي بين أيدينا لصيقة بالخطاب الوصفي الذي امتزج به السرد، مما ضمن للنص شكلا ديناميا متحركا دلاليا، بداية من الأبيات الأولى يستوقفنا تصوير مرئي مدرك لمعاني القصيدة، إذ إنها تحمل معاني ما قبل الثورة التحريرية

المباركة وأثناءها وما بعدها، تقوم الاستعارة باحتواء كل معاني الرفض والرضوخ والاستسلام ومعاني التضحية والكفاح، كوسيلة كفيلة بإيصالها إلى المتلقي، لها القدرة على التأثير فيه وإقناعه، لها القدرة على تصوير الأشياء ووضعها بصورة مرئية، وتصبح الأشياء المجردة عن طريقها محسوسة مدركة بصرية، ويتجلى هذا التصوير في بث الحركة والحياة في الجماد، وقد تجسدت في هذه العبارات من قول الشاعر:«مددنا خيوط الفجر، وصغنا كتاب البعث،وسقنا سفينا الوعد»، فهي استعارات تصريحية، جعلت المعاني والمقاصد قريبة من ذهن المتلقي، عن طريقة التقنية التي اعتمدها الشاعر، والمتمثلة في إلباس المعاني الطابع الروحي والديني،لتوجيه المتلقي إلى حقيقة الثورة التحريرية وأبعادها المشروعة، ففي قوله«**صغنا كتاب البعث**»(**10**)، استعار الشاعر لفظة«**البعث**»ذات البعد الديني مراعاة منه لنوازع المتلقي وميولاته ما أطلق عليه أرسطو«**الباتوس**»، ولم يذكر لفظة«بيان أول نوفمبر»الذي حدد فيه أهداف الثورة وأبعادها على سبيل التشبيه، حتى يتسنى له إدخال العنصرين في دائرة التشبيه أو وضعهما في مرتبة واحدة، أي أن الثورة التحريرية بأبعادها المشروعة التي قامت عليها في سبيل رفع الظلم ورد الكفر والعبودية والطغيان، تشترك مع ما دعت إليه الأديان السماوية، فتعطي هذه الاستعارة دفعا نفسيا وحماسا قويا للمخاطب، يدفع به نحو المشاركة في الثورة بما أنها مشروعة بكل ما يملك وبشتى الوسائل والطرق، ثم يذكر الشاعر عنصر استعارة آخر في قوله «**سقنا سفينا الوعد**»(11)،ليربط بين المعاني، مع تصاعد في حدة الدلالة، فنحن هنا أما تصور مرعب لمعاني الثورة، وقد جسدها في صورة سفينة ربانها المخاطب والمتلقي معا، هذه السفينة التي غامرت صوب البحر تغوص في أعماقه تتحدى أهواله دون أن تكون لها وجهة معلومة ترسو نحوها أو مخرج نجاة، إنه تحضير سايكلوجي للجمهور في حالة قبوله لهذا الخطاب، في الثورة يشبه ركوب البحر، فكلاهما يحتمل الموت والحياة، إضافة إلى الفزع والخوف، الخطر والهلاك، كما وظف الشاعر الاستعارة المكنية في قوله:

وفي ساحة التحرير سوق قوامها ضمائر قوم لا تباع ولا تشرى(12)

لقد جسد الشاعر ضمائر القوم وأرواحهم في هيئة سلعة وبضاعة تباع وتشرى، وجعلها في صورة مادية ملموسة، لتكون للذهن أقرب.وقال أيضا:

توزع فيها–للشهيد–شهادة بها بصمات الرب تطفح بالبشرى(13)

في هذا البيت أيضا تجسيد لشيء معنوي وهو الشهادة في سبيل الله في صورة مادي ملموس وهو الشهادة الورقية التي تمنح للمتفوق والناجح، وقد ساهمت كلتا الصورتين في تقريب المعنى إلى ذهن المتلقي وتمكنه على فهم الخطاب واستيعاب المقاصد، وقد بدا واضحا وجليا عبر عنصر التجسيد الذي يعد من بلاغة الاستعارة .

ب.المجاز المرسل:

يعرف البلاغيون المجاز المرسل بأنه اللفظ الذي أطلق في غير موضعه الأصلي لعلاقة غير المشابهة بين المعنيين؛ الحقيقي والمجازي، ويدرك بعلاقات منها:السببية والجزئية، الكلية، اعتبار ما كان، اعتبار ماسيكون، الحالية والمحلية، الآلية وغير ذلك...، وقد اعتبر البلاغيون هذه الآلية من العوامل الحجاجية، إذ إنها تصور المعاني و الأشياء تصويرا موجزا بحيث يجعل فكر المتلقي يشغل بابتكار صور جديدة، وقد ذكر ابن رشيق في عمدته أن«سائر العرب، فالحذف في كلامهم كثير لحب الاستخفاف وتارة للضرورة»(14)، وذكر أيضا أنه«قيل لابن الزبعري أنك تقصر أشعارك فقال لأن القصار أولج في المسامع وأجول في المحافل وقال مرة أخرى يكفيك من الشعر غرة لائحة وسبة فاضحة»(15)، كما ذكر أبو عمرو بن العلاء أن العرب كانت توجز ليحفظ عنها، والإيجاز في الكلام والقول لا يدع مجالا إلى إجهاد فكر المتلقي في البحث عن المعاني حتى لا يفقده التركيز، فيشعر بالملل ولا يستوعب من الكلام إلا قليله، ومن المجاز المرسل في هذا الخطاب الشعري الذي اخترنا منه قول الشاعر«وفي الأطلس الجبار كلمنا»، عبّر عن الغرض بحروف قليلة،فلفظة الأطلس غير مقصودة وردت بدلالة الكلية، وإنما المقصود هو جبال الأوراس التي انطلقت منها الثورة والتي تمثل الجزئية، ففي هذا المجاز حذف لدلالة المذكور على المحذوف،والغرض نفسه في قوله«وفي ساحة ...ضمائر قوم لاتباع»، مجاز مرسل علاقته السببية،كون الضمير جزء من الإنسان، و

لفظ«القوم» الذي كان يمكن للشاعر أن يتلفظ به ويتوجه به في الخطاب، إلا أن لفظ«ضمائر»أقوى منه حجاجيا كونه مصدر الوفاء والإخلاص وضد الخيانة،وقوله«فلا عز حتى تستقل الجزائر»، مجاز مرسل علاقته المكانية، فيه كلام محذوف، كل كلمة من كلمات هذه التعبيرات المجازية في مقام كلام كثير تم تجاوزه لغرض الإيجاز في الكلام، وبالتالي هناك تحول في الخطاب من الإقناعي«الحجاجي إلى الشعري على سبيل المغالطة بتداخل الغايات إذ تصير الوسائل الأسلوبية حججا تخييلية شعرية ليست برهانا يستند إلى قياس أو استدلال، أي لا يستند إلى حقيقة ،فهدف الحجاج البلاغي الخطابي ليس هو الإلزام والقسر، بل هو حمل المخاطب على الإذعان والتسليم بإثارة نزعة القبول والرضا، وبهذا يأتي اصطناع الشعري لتحقيق غاية إقناعية»(16)، متجاوزا الغاية الإمتاعية والجمالية التي تعد أهم المقاصد التي يقوم عليها النص الشعري.

3.4.آلية المقارنة:

تعد المقارنة من أنجع الآليات التي يلجأ إليها الشعراء بقصد إيصال الأفكار بارزة واضحة المعاني، وقد توافرت هذه الآلية الحجاجية في هذا النص الشعري على شكل استدلال تقابلي في القضايا الكبرى للنص، حيث نلمس مبدأ التقابل بين حقيقة الثورة التحريرية ومبادئها والرسائل السماوية، وقد مزج الشاعر بين الواقع التاريخي والتراث الديني في الأبيات الأولى:(17)

ورثنا عصا موسى ،فجدد صنعها حجانا ،فراحت تلقف النار لا السحرا
وكلم الله موسى في الطور خفية وفي الأطلس الجبار كلمنا جهر
وانطلق عيسى الإنس،بعد وفاتهم فألهمنا –في الحرب– أن ننطق الصخر
وكانت لإبراهيم بردا، جهنم فعلمنا –في الخطب– أن نمضغ الجمرا

حاول الشاعر ربط الثورة الجزائرية بأبعاد روحية وتاريخية متجذرة، واعتبرها أيضا من مظاهر الوجود الإلهي ،ليوظفها كعامل حجاجي إقناعي يؤثر في المتلقي ،يستهوي قلبه ويأسر عقله عبر المبادئ الحق للثورة التحريرية؛ السلام، والحياة والغد الجميل، هي المبادئ

نفسها التي أوكلها الله رسله وأنبياءه لتبليغها للناس، فقامت الثورة لمحو الظلم والعبودية والكفر والطغيان، هي مبادئ إذن مستمدة من الأديان السماوية، أي أن الشاعر قرن الثورة الجزائرية برسالة ربانية أرادها الله أن تكون في الأرض، وقد لجأ إلى توظيف هذه الآلية لأنه عالم بنوازع المتلقي وما يميل إليه ويرغب فيه، فجاءه بحجة الدين لأنها حجة دامغة لا يمكن أن يفندها إلا جاحد، يتقبل المخاطَب دعوة الشاعر للنضال والكفاح من أجل الوطن بكل عزم وإرادة وثورة وغضب.

كما بنى الشاعر عناصر نصه بين التقابل اللفظي وبين النفي والإثبات، هذا التقابل الذي يعطي تعددا للمعاني ،حيث يزيل عنها كثيرا من الغموض ويزيد من اتضاحها، إنها المعاني«التي تستدعي الحركة والنشاط وليس الجمود والثبات، ومن ثم فهي تتفاعل فيما بينها وتقتضي أنماطا من التداخل والتشابك تخص جل الأفكار المتجاورة والمعاني الغائية، وجوانب السياقات المختلفة لمعاني الكلمة الواحدة»(18)

فمنذ العتبة الأولى للنص«فلا عز حتى تستقل جزائر»هي عبارة تكررت مرتين، الأولى مثلت عنوان القصيدة، والثانية وردت في الشطر الأول من البيت الأخير ،بمعنى أنها بداية القصيدة وخاتمتها، هذه العبارة تحمل مدلولات متقابلة،يشعر المتلقي إزاءها أنه أمام وضع مأزوم، سيبحث حتما عن مخرج له، وهذا ما كان يسعى إليه مفدي زكريا، وقد حمل هذا الخطاب مقصدين؛ الأول يتضمن تنبيه الجمهور إلى حالة الذل والهوان التي يعيشها، والثاني يدعوه إلى المطالبة بالاستقلال، فيتصور المخاطَب مصيره عبر هذا التقابل:«لا عز≠استقلال»،ليرتبط في ذهنه أنه لا يمكنه العيش في عز وشرف مادام تحت وطأة الاحتلال، فيحاول فك هذا التقابل المرتبط بعضه ببعضه ارتباطا شديدا يصعب فصله إلا بشق الأنفس، إلى جانب أنه تقابل، فهو قضية منطقية، أي سبب ونتيجة، فتستجلى معاني هذا التقابل أمام أعين المتلقي، فيحمل نفسه على مجابة المحتل رغبة في نيل العز والاستقلال، وهناك تقابل آخر تضمن سبب ونتيجة، وهو قول الشاعر«فلا مجد حتى نصنع الوحدة الكبرى»، وقد وردت هذه العبارة في خاتمة القصيدة، تدل عن قصد واضح للشاعر ودعوة الجمهور إلى الاتحاد

والتكاتف بين مختلف أطياف الشعب الجزائري، في إشارة منه إلى تلك الأحزاب السياسية المتناحرة والحركات الجمعوية التي فككت المجتمع وأضعفته بدل أن تقويه، وقد حملت غرض التنبيه والإغراء في آن، فالمجد غير محقق إلا إذا تحققت الوحدة وتكتلت الأحزاب والأهواء والمشارب،«لا مجد≠وحدة»، كما تضمن القصيدة العديد من المعاني المتقابلة، بين القيد والحرية،الكفر والإسلام ،بين الموت والحياة ،بين الخوف والسلم، هذا التقابل في المعاني؛ يمثل البناء الذي ظل يقوض صرح القصيدة في المقطع الأول منها، فهو في نظر الشاعر الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى الحقيقة ويكشف عنها، الطريق الذي يحتوي على محطات تشد انتباه المتلقي، فكل محطة تمثل إحدى المطالب الحقيقية ومطامح الشعوب المشروعة، فالحرية والانعتاق، السلم والأمن، العز والشرف، المجد والرفعة، الحياة الأفضل والغد الأجمل، إنها المطالب التي يسعى كل إنسان جاهدا لتحقيقها، وهذه العناصر التي تعد في حد ذاتها الملامح النفسية ونوازع المتلقي وميولاته واختياراته، ما أطلق عليه أرسطو«الإيتوس».

4.4.آلية التناص :

يعد آلية مهمة يسعى من خلالها الشاعر إلى ربط علاقة متينة بين النص والمتلقي، بحيث يمنحه القدرة على المشاركة في بنائه، خاصة إذا تضمن النص منظومة من المعارف ذات الصلة بالمتلقي؛ ما يتعلق بالقيم الاجتماعية والتاريخية والعقائدية، فهو يرتكز على تحوير نصوص سابقة في نص لاحق، يثبت من خلال ذلك على وجود علاقة تفاعل بين النصوص الغائبة والنص الحاضر، فيكون النص بهذا المفهوم غير مستقل، يكتسب قوة معانيه من نصوص أخرى، فهل يمكن لعنصر التّناص أن يكون له دور تأثيري إقناعي؟، يمكن القول بأنه«كما الإيقاع، لايرتبط على نحو مباشر بالبناء الحجاجي؛ فهو لا يصطف مع منظومة حجاجية محددة، ولكنه هناك دائما وفي العمق يستنفر به النّص أو يستنفر هو للنص أصداء ثقافية ومحددات تاريخية وقيما عقدية راسخة، لا يمكننا –ونحن نقارب نصا أدبيا تبدو بنيته العميقة مشعبة بهذه الروح–أن نغفل عنها.وعلى هذا يغدو التّناص عبر الفعل الحواري الثقافي الموسع»(19)، فتنصهر هذه القيم في النّص وتذوب ،فتتجاوب معه لتغدو وقائع نصية،

وهذا ما أطلق عليه مُحَمَّد عبد الباسط عيد مصطلح«الأفق المنصهرة»، فالنص القرآني لما يحمل من قوة ومكانة يمارس فعلا تأثيريا يجعل الجمهور طرفا في مواجهة هذه القوة.

نشأ مفدي زكريا في بيئة محافظة وتربى تربية دينية، التحق بالكتاب، حفظ القرآن الكريم، وتعلم علوم اللغة العربية وعلوم الدين بمدرسة الخلدونية ثم بجامع الزيتونة بتونس، شارك في الحركة الأدبية والسياسية حين عودته إلى الجزائر ،فاصبغ شعره بألفاظ عذبة من القرآن لسحر بيانه وكثرت معانيه السامية ذات القيم والفضائل المقتبسة، وكانت روح القرآن الكريم تسري كما يسري الدم في شرايينه، فإذا ما عبّر عن فكرة ما استلهم معانيها من القرآن على سبيل التشبيه أو المقارنة تعظيما وإجلالا لها كعظمة القرآن وقدسيته،«التناص إذن يمكنه أن يدعم البناء الحجاجي لنص ما، صحيح أنه لا يدعمه على نحو مباشر ولكنه هناك دائما وفي العمق يستثمره كل خطاب حقيقي كي يفتح لنفسه آفاق التأويل التي تغذي القلوب والعقول معا، وإذا تحقق تأكدت فكرة المستويات الحجاجية للقول الواحد»(20)، ألفاظ القصيدة ومعانيها مقتبسة من القصص التي وردت في القرآن لغاية الاعتبار، والتي تضمنت المواقف الإنسانية في سبيل إحقاق الحق ورد الطغيان، مثل قصص الأنبياء التي يبدو أن الشاعر شديد التأثر بها بعدما أورد في كل شطر بيت من القصيدة إحدى القصص النبوية؛قصة سليمان، إبراهيم، موسى، عيسى،...، لأنه يعتبر الثورة الجزائرية علامة الوجود الإلهي، يؤيدها الله بنصره، كما نصر أنبياءه ورسله، ويذكر المتلقي بهزيمة جيوش فرنسا كما انهزم فرعون وسحرته، و من أجل إبعاد الشكوك والظنون التي كانت تحوم في نفوس المجاهدين والثوار وإقناعهم أن النصر مؤكد ومحقق في قوله:

وما دلنا عن موت من ظن أنه سليمان–منساة–على وهمها خرا(21)

لقد أشار في هذا البيت الشعري إلى القائد الفرنسي ديغول الذي ادعى العظمة وكان يتكئ على عصا زائفة، وقد اقتبس معاني هذا البيت من قوله تعالى:**{فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب الهين}سبأ/13**

وقول:ورثنا عصا موسى،فجدد صنعها حجانا،فراحت تلقف النار لا السحرا(22)

اقتبس من قوله تعالى:**{وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا}طه/69**، «وفي الأطلس الجبار كلمنا جهرا»، اقتبسها من قوله تعالى:**{وكلّم الله موسى تكليما}النساء 164**

وقوله:وكانت لإبراهيم بردا ،جهنم فعلمنا-في الخطب-أن نمضغ الجمرا(23)

اقتبس البيت من قوله تعالى:**{قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم}الأنبياء/69**.

وقال أيضا:تباركت شهرا بالخوارق طافحا وسبحان من بالشعب في ليلة أسرى

اقتبس معاني هذا البيت من قوله تعالى:**{سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله}الإسراء/1**

وقال أيضا:ويقرأ في التنزيل عند صلاته بأنك بعد العسر تغمره يسرا(24)

أخذ من قوله تعالى :**{إن مع العسر يسرا }الشرح/6**

يرجع كثرة التناص الديني والاقتباس في هذا النص الشعري إلى لغة مفدي زكريا الحافلة بالرموز الدينية والمعاني القرآنية، التي تعد المعين الثقافي الأصيل الذي يغترف منه الشاعر قاموسه اللغوي،«غايته من ذلك أن يستعير من قوتها قوة، وأن يكشف عن مهارته في إحكام الصلة بين كلامه والكلام الذي استعار منه، وأتى به...ولا نعني في هذا الموضع أن يستند الشاعر إلى حجة نقلية، بل يأتي بمجرد التركيب من القرآن أو الحديث ويدخله في كلامه على نحو محكم دقيق، فيلون ذاك التركيب ما حوله ويشيع ما فيه من قوة ما يرفد طاقته برمته ويوجه المتلقي إلى غايته، وقد يخضع الشاعر الآية المقتبسة أو الحديث المأخوذ إلى شيء من التغيير ليجعل المقتبس منصهرا تمام الانصهار في نسيج الشعر ملائما كل الملاءمة لبنيته الصوتية حتى يكون الفعل تاما والتأثير حاصلا»(25).

لقد استطاع الشاعر عبر آلية التناص أن يمتص من معاني القرآن تلك القيم والمبادئ، ويحورها في خطاب شعري إلى غايات منشودة ومقاصد، يدعو الجمهور للأخذ بها، وقد نجح في التأثير فيه وحقق الخطاب نجاعة، لخلو الحجاج من المغالطات، و كذالك عدم الاختلاف في المرجعيات، فالقرآن حجة دامغة لا يمكن الطعن أو التشكيك فيها.

5.خاتمة:

بما أن النص الشعري الذي تناولناه بالدراسة هو خطاب ثوري، فهو بلاغي حجاجي موجه؛ ملفوظاته وصفية سردية لا تخلو من حجة، يسعى الشاعر من خلاله إلى توجيه المتلقي إلى هدف معين، يتمثل في الثورة على المحتل واسترجاع السيادة والحرية للعيش في عز وشرف.

لذا يمكننا القول بأن الدرس الحجاجي كفيل بقراءة الخطابات الشعرية، لما ينطوي عليه من جهاز مفاهيمي وأدوات إجرائية وآليات تحليل، كفيل لأنه جهاز حجاجي أو بلاغة متكاملة باصطلاح ديكرو يشتمل على مستويات ثلاث؛ أولها المستوى النحوي وله دور في تكوين اللغة الطبيعية، والمستوى الدلالي وله وظيفة توجيه الدلالات والمقاصد، والمستوى التداولي ويعنى بتحول اللغة الطبيعية والدلالات والمقاصد إلى قيم للفعل، وفي الأخير يخلص إلى حجاجية هذه القيم، التي تعد حقيقة البلاغة.

وبهذا المفهوم أصبحت البلاغة الجديدة تتعدى التحليل اللساني للأقوال والجمل إلى مجال أكثر رحابة؛مجال الخطاب الرحب وفق مقاربات حجاجية من منظور أن اللغة ذات وظيفة حجاجية بدرجة أولى.فبالسرد نحاجج وبالوصف كذلك وبالتمثيل و المقارنة والمجاز والاقتباس والإيقاع الداخلي والخارجي والعوامل المنطقية وشبه المنطقية، والحجاج في الأسماء والأفعال والظروف والحروف....

6- قائمة الإحالات:

(1)حمادي صمود :من تجليات الخطاب البلاغي، دار قرطاج للنشر تونس 1999، ص133.

(2)حافظ اسماعيل علوي:الحجاج ومجالاته ؛دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة،ج1،عالم الكتب الحديث إربد،الأردن،2010.ص9.

(3) حاقظ اسماعلي علوي،م ن،ج1،ص10.

(4)حاقظ اسماعلي علوي،م ن،ج1،ص9.

(5)أمينة الدهري: الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة،ط1،شركة النشر والتوزيع المدارس ،الدار البيضاء المغرب،2011 ،ص06.

(6)أبو بكر العزاوي: الحجاج والشعر نحو تحليل حجاجي لنص شعري ،مجلة دراسات سيميائية المغرب ،ع 7،ديسمبر1992،ص100

(7)محمّد الولي: مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشاييم، عالم الفكر الكويت،ع2ديسمبر،2011، ص.17.

(8)عبد العزيز لحويدق:نظرية الاستعارة في البلاغة الغربية،ط1،دار كنوز المعرفة،عمان،2015،ص23.

(9)عبد العزيز لحويدق،م ن،ص32

(10)مفدي زكريا:اللهب المقدس،موفم للنشر،الجزائر،2007،ص255.

(11)مفدي زكريا،م ن،ص255.

(12)مفدي زكريا،م ن،ص257.

(13)مفدي زكريا،م ن،ص257.

(14)ابن رشيق:العمدة في صناعة الشعر ونقده،ط1،مطبعة السعادة مصر،1907،ص169.

(15)ابن رشيق: م ن،ص124.

(16)أبو بكر العزاوي: الحجاج بين النظرية والتطبيق،ط1،عالم الكتب الحديث،إربد الأردن 2020، ص141

(17)مفدي زكريا: م ن،ص256.

(18)سعاد أنقار:البلاغة والاستعارة ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته ،ج2،عالم الكتب الحديث،إربد الأردن،2010.ص140.

(19)محمّد عبد الباسط عيد:في حجاج النص الشعري،إفريقيا النشر المغرب،2013،ص146.

(20)محمّد عبد الباسط عيد:م ن،ص159-160.

(21)مفدي زكريا: م ن،ص255.

(22)مفدي زكريا: م ن،ص255.

(23)مفدي زكريا: م ن،ص256

(24)مفدي زكريا: م ن،ص256

(25)سامية الدريدي:الحجاج في الشعر العربي ؛بنيته وأساليبه،ط2،عالم الكتب الحديث ،إربد الأردن،2011،ص118.

7-قائمة المراجع:

-القرآن الكريم رواية ورش عن نافع

المصادر:

-مفدي زكريا:ديوان اللهب المقدس.

المراجع:

-إبراهيم سلامة:بلاغة أرسطو بين العرب واليونان،ط1،مكتبة الأنجلو مصرية، 1950
-ابن رشيق:العمدة في صناعة الشعر ونقده،ط1،مطبعة السعادة مصر،1907
-أبو بكر العزاوي: الحجاج بين النظرية والتطبيق،ط1،عالم الكتب الحديث،إربد الأردن 2020.
- أمينة الدهري:الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة،ط1،شركة النشر والتوزيع المدارس ،الدار البيضاء المغرب،2011 عبد العزيز
-حافظ اسماعيل علوي:الحجاج ومجالاته ؛دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة،ج1،عالم الكتب الحديث إربد،الأردن،2010
-الحسين أبو هاشم تقديم مُحَمَّد العمري:بلاغة الحجاج؛الأصول اليونانية،ط1،دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت،2014
- حمادي صمود :من تجليات الخطاب البلاغي، دار قرطاج للنشر تونس 1999
-سامية الدريدي:الحجاج في الشعر العربي ؛بنيته وأساليبه،ط2،عالم الكتب الحديث ،إربد الأردن،2011
-سعاد أنقار:البلاغة والاستعارة ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته ،ج2،عالم الكتب الحديث،إربد الأردن،2010
-لحويدق:نظرية الاستعارة في البلاغة الغربية،ط1،دار كنوز المعرفة،عمان،2015
- مُحَمَّد عبد الباسط عيد:في حجاج النص الشعري،إفريقيا النشر المغرب،2013

المجلات:

-أبو بكر العزاوي: الحجاج والشعر نحو تحليل حجاجي لنص شعري ،مجلة دراسات سيميائية المغرب ،ع7 ،ديسمبر1992.
-مُحَمَّد الولي: مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشاييم، عالم الفكر الكويت، ع2ديسمبر،2011